

سؤال النخبة في التراث النظري الغربي؛ من كينونة الظاهرة الى مؤسسة المفهوم

the question of the elite in the Western theoretical heritage; From the entity of the phenomenon to the institutionalization of the concept

فاتح باي *

- جامعة محمد أمين دباغين، سطيف 2 (الجزائر)

beyfateh77@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2023/05/22

تاريخ المراجعة: 2023/05/08

تاريخ الإيداع: 2022/11/24

ملخص:

جاءت هذه الدراسة كمحاولة للحفر والتحقيب في موضوع النخبة -الظاهرة والمفهوم-؛ ولكن من زاوية سوسيولوجية صرفه؛ متكئة على الجهاز المفاهيمي والعدة الايبستومولوجية التي يزخر بها علم الاجتماع والتي تميزه عن باقي التخصصات الأخرى والتي يدخل هذا الموضوع أيضا في بؤرة اهتماماتها؛ مثل السياسة والتاريخ والفلسفة. وقد عالجنه- أي الموضوع -من جوانب مختلفة متبعين في ذلك منهجية وأسلوب خاص ومعتمدين كذلك على الأدبيات التي كتبت حوله في التراث النظري السوسيولوجي؛ إلا أن تركيزنا تمحور حول النقاط التالية: تعريف المفهوم في الخطاب الفكري الغربي؛ وأهم الإشكاليات التي يطرحها في الحقل النظري السوسيولوجي؛ ثم تطرقنا للسياق التاريخي لظهور وتطور الظاهرة النخبوية في المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا؛ وعرجنا بعد ذلك على أهم النظريات والإسهامات النظرية التي أسست لهذا المفهوم خاصة الكلاسيكية منها؛ وأخيرا تناولنا علاقة مفهوم الصفوة باعتباره وسم عربي خالص بمفهوم النخبة الذي يحمل حمولة معرفية ودلالية غريبة. وقد توصلت الدراسة إلى أن النخبة كظاهرة قديمة قدم الاجتماع الإنساني؛ ولكن كمفهوم فهو حديث نسبيا ظهر معاندا ومناهضا للفكر الماركسي.

الكلمات المفتاحية: النخبة؛ الصفوة؛ الطبقة؛ النظريات الكلاسيكية؛ الماركسية.

Abstract:

This study came as an attempt to dig and investigate the issue of the elite - the phenomenon and the concept -; But from a purely sociological point of view, it relies on the conceptual apparatus and the epistemological tool that sociology abounds and that distinguishes it from other disciplines, in which this subject is also at the center of its interests. such as politics, history and philosophy. We have dealt with it - that is, the subject - from various aspects, following a special methodology and style, and also relying on the literature written about it in the sociological theoretical heritage. However, our focus focused on the following points: definition of the concept in Western intellectual discourse; and the most important problems it raises in the sociological theoretical field; then we touched on the historical context of the emergence and development of the elitist phenomenon in human societies, past and present; After that, we reviewed the most important theories and theoretical contributions that established this concept, especially the classical ones. Finally, we dealt with the relationship of the concept of elite as a purely Arabic label to the concept of elite, which carries a Western epistemological and semantic load. The study concluded that the elite as a phenomenon is as old as the human society. But as a concept, it is a relatively recent one that appeared to be hostile to Marxist thought.

Keywords: elite; elite; class; classical theories; Marxism .

* المؤلف المراسل.



مقدمة:

من أجل الفهم والإلمام بموضوع النخبة ومن مختلف الجوانب يجب أولاً إمالة اللثام عن النخبة كظاهرة وثانياً كمفهوم؛ انتشر استعماله في الدراسات والأبحاث السوسيولوجية والسياسية، وأصبح محل وبؤرة اهتمام الكثير من الباحثين والمختصين في هذه المجالات وذلك بالتطرق؛ أولاً لمفهوم النخبة ومختلف الإشكاليات المصاحبة له؛ وبعد ذلك يجب التعرض للسياق التاريخي أو ما يسمى بالخلفية التاريخية للظاهرة في المجتمعات الإنسانية القديمة ثم تناول مختلف التطورات التي صاحبت ظهور المفهوم في الفكر السياسي والفلسفي الغربي من خلال كتابات بعض المفكرين والفلاسفة؛ كما لا يمكن التعرض لمفهوم النخبة دون التطرق لما يسمى بالتراث النظري السوسيولوجي أي؛ مختلف الإسهامات النظرية التي أثرت هذا المفهوم خاصة الكلاسيكية والتي من شأنها المساعدة على فهم أكثر دقة وموضوعية للظاهرة النخبوية في المجتمعات الإنسانية عموماً والغربية على وجه التحديد؛ باعتبار أن هذه النظريات نشأت في معظمها في هذه البيئة، وفي السياق ذاته تم التعرض لعلاقة مفهوم الصفوة في التراث الإسلامي بالنخبة كمفهوم مرادف يحمل حمولة معرفية غربية؛ وذلك من أجل أولاً إزالة الالتباس الذي يصاحب في العادة استعمالهما في الكتابات والأدبيات السوسيولوجية والسياسية العربية، وثانياً لمعرفة أوجه الاتفاق والتنافر بينهما. أما الإشكالية الرئيسة لهذه الدراسة فتروم الإجابة عن التساؤلات التالية: ماذا نعني بالنخبة؟ ما هي أهم الإشكاليات التي يطرحها المفهوم في الحقل السوسيولوجي الغربي؟ متى ظهرت النخبة كظاهرة ثم كمفهوم؟ ما هي الفروقات ذات الدلالة اللغوية والاصطلاحية بين الصفوة والنخبة؟ ما هي أهم النظريات الكلاسيكية الغربية المفسرة للنخبة؟ ومن أجل فهم أكثر للموضوع اعتمدنا في هذه الدراسة على الخطة التالية:

-مقدمة

أولاً-مدخل مفاهيمي للموضوع.

ثانياً- في إشكالية مفهوم النخبة.

ثالثاً-السياق التاريخي لنشأة الظاهرة والمفهوم (تاريخية النخبة).

رابعاً-مفردات التراث النظري الكلاسيكي الغربي في دراسة مفهوم النخبة.

خامساً-من الصفوة في التراث الإسلامي؛ إلى النخبة في التنظير الغربي.

-خاتمة

أولاً- مدخل مفاهيمي للموضوع:

يعد مفهوم النخبة من المفاهيم التي شاع استخدامه في الأدبيات السياسية، والسوسيولوجية، وفي الدراسات التاريخية والفلسفية وحتى السيكلوجية؛ إذ لا تكاد تخلو دراسة في هذه الحقول المعرفية؛ تهتم بتوزيع مراكز القوة والسلطة والنفوذ في المجتمع؛ إلا ونجد مفهوم النخبة حاضراً بقوة في السجلات المعرفية وفي المعارك الفكرية بين المهتمين والمشتغلين داخل هذه التخصصات؛ وهو ما يؤكد محورية هذا المفهوم في كينونة وسيرورة الاجتماع البشري. ويوجد عدد كبير من المحاولات التي جاء بها المختصون والمهتمون بهذا الموضوع في إطار تعريفهم لمفهوم النخبة؛ وبالتالي فلا يمكن أن نقول إن هناك تعريفاً محدداً ومتفقاً عليه لهذا المفهوم. والملاحظ أنها- التعاريف- تختلف باختلاف

الخلفية الأيديولوجية والحمولة المعرفية والانتماء الفكري والعقدي لأصحابها؛ إلا أن القاسم المشترك بينها جميعا هو اعتبار النخبة " فئة قليلة من الأفراد تحتل الصدارة والريادة في المجتمع؛ وهذا نصير ما تتمتع به من سلطة وقوة وامتياز داخل هذا المجتمع ".

وسنعرض في هذا العنصر تعاريف قدمها بعض الآباء المؤسسين لنظرية النخبة في الأدبيات الغربية الكلاسيكية؛ باعتبار أن هذا المفهوم هو في الأصل وليد هذه البيئة.

يذهب فلفيردو "باريتو" في محاولة تعريف النخبة انطلاقا من نظريته الخاصة عن التفاوت الإنساني حيث يقول "... أنه يمكن التمييز بين فئة من الناس وأخرى فيما يتعلق بإمكاناتها ونشاطاتها بجملة من المؤشرات المتعلقة بالقدرات الجسمانية والعقلية؛ مثل المهارات والذكاء بما يفتح المجال أمام جماعة ما تمثل أقلية لاحتلال مكانة اجتماعية عالية؛ وتستعمل هذه الجماعة القوة أو العنف والخديعة من أجل السيطرة على الحكم والبقاء فيه..."¹

يركز "باريتو" في تعريفه السالف على العوامل والقدرات السيكلولوجية في ولوج الأفراد لدائرة النخبة؛ مؤكدا أن هذه العوامل هي المعيار الحقيقي الذي يمكن حامله من شغل مكانة اجتماعية مرموقة في النسق الاجتماعي؛ وهو في هذا يعارض وبشدة مقولات كارل ماركس الذي أكد على العامل الاقتصادي واعتبره العنصر الأساسي الذي تتمكن من خلاله الطبقة الحاكمة السيطرة على الجماهير أو طبقة البروليتاريا؛ كما استعار أيضا بعض الأفكار من مواطنه ميكافلي في تفسير سلوكيات النخبة للمحافظة على مراكزها الريادية في المجتمع.

ويعرف جيتانو "موسكا" النخبة من خلال مقارنته المناهضة للفكر الماركسي مثله مثل أستاذه فلفيردو "باريتو" ويؤكد على أن "... بين الحقائق والميول الدائمة التي يمكن أن توجد في كل بنية أساسية ظاهرة بينة على درجة تبدو فيها بوضوح لأقل العيون تدقيقا، ففي كل المجتمعات من تلك المجتمعات ضعيفة التطور والتي لم تكد تبلغ فجر المدينيات، إلى أكثر المجتمعات تقدما وقوة، نشأة طبقتان من الناس؛ طبقة حاكمة وطبقة محكومة؛ والطبقة الحاكمة هي دائما أقل هاتين الطبقتين عددا؛ وهي التي تقوم بكل الوظائف السياسية وتحتكر السلطة كما تتمتع بالفوائد التي تكون حصيلة لتلك السلطة..."²

يوضح "موسكا" أن النخبة كظاهرة؛ قديمة قدم الاجتماع البشري، ففي كل المجتمعات الإنسانية مهما كانت درجة تحضرها أو تخلفها تشكلت داخلها هذه الظاهرة؛ فالمجتمع في ضل هذه الظاهرة ينقسم إلى طبقتين؛ طبقة حاكمة وطبقة محكومة؛ الأولى قليلة العدد ومنظمة وتحكم في مقاليد السلطة مما يعود عليها بالفائدة والثانية تمثل الأغلبية خاضعة للطبقة الأولى لا تملك شيئا.

يقدم "روبرت ميشلز" تعريف للنخبة حاول من خلاله التوفيق بين ما جاء به أستاذه "موسكا" وما أقر به "باريتو"؛ حيث يقول "... في كل تنظيم أيا كان حجمه لابد أن توجد القيادة- النخبة- لكي يكتب له النجاح والبقاء؛ وطبيعة هذا التنظيم تمنح القادة القوة والامتياز، والقادة في التنظيم هم الذين يعبرون عن آراء الأعضاء ويتدعم موقفهم باستمرار

¹ مولود زايد الطيب، علم الاجتماع السياسي، ط 1، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، 2007، ص 192-193

² أحمد زايد: البناء السياسي في الريف المصري، تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة، ط 1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981، ص: 42

نتيجة لعوامل تنظيمية وأخرى سيكولوجية لكن العوامل التنظيمية لها الأهمية دائما وكلما ازداد التنظيم حجما وتعقيدا تزايد اعتماده على قاداته وجهازه البيروقراطي الذي يكتسب خبرة فنية خاصة...¹

من تعريف ميشلز نستخلص أن النخبة في نظره أو كما سماهم هو القادة يرتبطون عضويا بالبناء أو التنظيم الذي ينتمون إليه؛ حيث أن وجودهم ضروري ومهم لبقاء واستمرار هذا البناء والذي يمنحهم بدوره القوة والسطوة والامتياز داخله. ويتفق مع "باريتو" و"موسكا" في سمات وخصائص أفراد النخبة التي تؤهلهم لقيادة الجماهير ويرجعها في الأساس إلى عوامل سيكولوجية- مثل "باريتو"- وتنظيمية- "موسكا"- إلا أنه يعظم من شأن العوامل الأخيرة.

ما يلاحظ على هذه التعاريف أنها مست وتطرفت للنخبة السياسية أو ما يمكن أن نسميه النخبة الحاكمة فحسب؛ وأعلت من شأنها وبالغت من أهميتها ومحوريتها في مقابل النخب الأخرى المشكلة لهرم وقمة النسق الاجتماعي؛ والتي حتى وإن تعرضت لها جعلت دورها ثانوي وتكميلي للنخبة السياسية.

ثانيا- إشكالية مفهوم النخبة:

يطرح مفهوم النخبة عند استعماله والاستعانة به لفهم صيرورة الاجتماع الإنساني وتوزيع مراكز القوة والسلطان داخله العديد من الإشكالات الأيديولوجية والاصطلاحية؛ فهو من الناحية الفكرية ولید اتجاه فكري غربي ليبرالي قوامه تقديس الحرية الفردية ومعارضة الإرث الديني الكنسي؛ وهذا الاتجاه كان محصلة لتفكير فلاسفة عصر الأنوار في أوروبا ومنتوجهم الخالص، ومن الناحية التاريخية أو الزمنية ظهر هذا المفهوم في فترة كانت تعجب السجلات والصراعات الأيديولوجية بين الرأسمالية الليبرالية والاشتراكية الشيوعية؛ خاصة مع ظهور المنجزات الفكرية لكل من كارل ماركس وأستاذه "فريدريك هيغل".

وانطلاقا مما سبق يمكن القول إن الرواد الأوائل المؤسسين لمفهوم النخبة -وعلى رأسهم "باريتو"- حاولوا تقليد ومحاكاة مفهوم الطبقة الحاكمة الذي صاغه كارل ماركس من حيث المبدأ ولكنهم اختلفوا معه في الأفكار والمكانزمات التي تمكن هذه الطبقة أو تلك من فرض سيطرتها وسلطانها داخل المجتمع ف"باريتو" مثلا استعار مصطلح النخبة من عالم السلع أو التجارة (يستعمل المفهوم للتمييز بين السلع الرديئة والسلع الجيدة) ليدخله إلى عالم الدراسات الاجتماعية والسياسية كمحاولة منه لابتداع مصطلح يعاند به مفهوم الطبقة الحاكمة الذي صاغه كارل ماركس؛ ولكنه -"باريتو"- طعم مصطلحها لجديد بمضامين إيديولوجية مخالفة تماما للحمولة الفكرية الماركسية.

إن المجتمع الإنساني عند منظري النخبة الكلاسيكيون لا يقوم على سيطرة العوامل الاقتصادية وعلاقاتها؛ كما لا تتأسس القوة فيه على سيطرة الطبقة البرجوازية الحاكمة على حد تعبير ماركس بل تتوزع السلطة داخل هذا المجتمع بالاعتماد على عوامل أخرى تعد الجوانب المادية الحلقة الأضعف فيها. حيث يعتقد "باريتو" مثلا أن العوامل السيكولوجية والمتمثلة أساسا في القدرات العقلية والجسدية التي تتمتع بها الفئة الحاكمة أو كما سماها هو النخبة هي التي تساعد في التحكم في زمام الأمور داخل المجتمعات الإنسانية.

لقد أراد الإباء المؤسسين للفكر النخبوي الغربي إيجاد توليفة جديدة لفكرة السيطرة والسلطة في المجتمعات الأوروبية في تلك الفترة مختلفا تماما عن ما كان سائدا آنذاك؛ تبحث هذه التوليفة الجديدة من جهة في أصول التغيرات

¹ محمد علي محمد: أصول علم الاجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، 2009، ص 74-75

السياسية التي حدثت داخل هذه المجتمعات نتيجة انهيار الأفكار والإيديولوجيات العتيقة القائمة أساسا على الحكم الملكي المطلق المدعوم دينيا من طرف الفكر اللاهوتي الكنسي؛ وحلول أفكار جديدة مثلتها في الأساس ظهور مفهوم الدولة القومية والسلطة المدنية لاسيما بعد نجاح الثورة الفرنسية (1789)؛ ومن جهة أخرى حاولت هذه الصيغة- التوليفة رصد التقلبات الاجتماعية التي أحدثتها الثورة الصناعية في أوروبا وانتصار النزعة الليبرالية التي ساهمت في انتشار اقتصاد السوق وعمليات التصنيع والتحضّر وما صاحب ذلك من انهيار في البنى المجتمعية القديمة وأقول نجم الارستقراطية التقليدية وصعود الطبقة البرجوازية الجديدة للواجهة واحتكارها للمشهد العام في المجتمعات الأوروبية الجديدة.

إن السلطة السياسية بما تمثله من قيمة اعتبارية ورمزية داخل المجتمع كانت محل اهتمام منظري النخبة الأوائل - خاصة "باريتو" و"موسكا" - فلقد حاول هؤلاء إيجاد مصطلح جديد مغاير تماما ومزاحم في نفس الوقت للمفاهيم الكلاسيكية المنتشرة آنذاك كالأرستقراطية، وطبقة النبلاء، والاعيان ومعاندين به الطبقة الحاكمة لماركس، لقد ابتدعوا مفهوم النخبة للدلالة عن الفئات الحاكمة في المجتمع أو الدولة؛ وانصب جل اهتمامهم حول ما سموه: بالنخبة السياسية الحاكمة. لقد أقرّوا أن هذه الفئة ورغم أنها تمثل أقلية إلا أنها استطاعت بفضل ما تتمتع به من خصائص وسمات خاصة أن تستحوذ على مقاليد السلطة وزمام الأمور في المجتمع. إن انسجامها وتماسكها وواعمها بموقعها ومصالحها واجتهادها إلى أقصى الحدود في الحفاظ على سلطتها وحكمها ساعدها في النهاية على السيطرة على الأغلبية المشتتة؛ مستخدمة في ذلك وسائل الترغيب والترهيب والإقناع في آن واحد من أجل تحقيق هذا المبتغى.

لقد طرح مفهوم النخبة إشكالية أخرى لا تقل أهمية عن الإشكالات السالفة الذكر تتناقض في جوهرها مع ما ذهب إليه فلاسفة العقد الاجتماعي؛ تتمحور أساسا حول قضية نظام الحكم في المجتمعات الإنسانية الحديثة في ظل حكم النخبة؛ هل هو ديمقراطي أم أوليغارشي؟ يذهب منظرو النخبة الأوائل أن الديمقراطية في الأصل خدعة وكذبة حديثة ابتدعها بعض منظرو السياسة لإيهام الجماهير أن السلطة في يد الشعب يفوضها من يشاء عن طريق انتخابات حرة ونزيهة؛ تتمكن بفضلها أقلية من إدارة شؤون الدولة والمجتمع وتكون هذه الأقلية خاضعة وخائفة تماما لحكم وسلطة الجماهير. إلا أن الواقع-حسب الرواد الأوائل لنظرية النخبة- يكذب هذه الأقاويل والمزاعم ويدحضها كلية؛ فالأقلية هي التي تمتلك وسائل السيطرة وهي تصل في غالب الأحيان إلى السلطة لا بالشرعية الشعبية والانتخابات النزيهة بل بفضل ما تمتلكه من أساليب وقدرات للمناورة والدعاية؛ وفي النهاية فالأقلية هي التي تحكم وتتولى صنع واتخاذ القرارات وهذا يتناسب تماما مع النظام الأوليغارشي.

ويتفق الرواد الأوائل؛ "باريتو" و"موسكا" وميشلز، على أن النخبة تقف في مقابل الجماهير التي تكون عموم الشعب، ولكنهم يختلفون قليلا حول طبيعة الخصائص؛ التي تتمكن بواسطتها النخبة من الاستحواذ على السلطة، فهي في نظر "باريتو" تعود إلى خصائص سيكولوجية نابعة من القدرة الفائقة، على استخدام ما سماه هو: رواسب المحافظة أو التجديد، وهي عند "موسكا" و"ميشلز"؛ ترجع إلى القدرة التنظيمية انطلاقا من أنها الأكثر تنظيما في المجتمع مما يتيح لها إمكانية التحكم بمفاصل عملية صنع القرار.

ثالثا- السياق التاريخي لنشأة الظاهرة والمفهوم (تاريخية النخبة):

تعد قضية نشأة وظهور النخبة كظاهرة اجتماعية وسياسية من الأمور الخلافية بين علماء الاجتماع والسياسة والتاريخ من حيث تاريخية الظاهرة؛ إلا أنهم أكدوا جميعا تقريبا على أنها ظاهرة مصاحبة للاجتماع الإنساني منذ القدم؛ وما يدعم هذا الطرح ويؤيده هو حضورها اللافت للعيان في جميع الحضارات القديمة ولو بصور مختلفة ومتفاوتة من حيث التأثير والقوة والموقع في هذه الأخيرة. ومن الحضارات القديمة التي خبرت هذه الظاهرة وعرفت بها الحضارة اليونانية؛ فلقد أنتجت وأبدعت هذه الحضارة نخبة مفكرة وعالمة بلغت شهرتها جميع أصقاع العالم وبقت نظرياتها ونتاجاتها الفكرية خالدة عبر العصور والأزمنة ونعني بها الفلاسفة؛ لقد ساهمت هذه النخبة إلى حد بعيد في ازدهار الحياة الفكرية والثقافية والعلمية لا في اليونان فحسب بل في كل مكان وصلت إليه هذه الأفكار. ومن الفلاسفة الذين أثروا بنظرياتهم المجال الفكري والسياسي والاجتماعي العالمي نجد كل من سقراط وأفلاطون ومن بعده تلميذه أرسطو¹.

وما يمكن الوقوف عليه أن هؤلاء الفلاسفة نادوا بضرورة أن يتولى زمام الحكم والسلطة في المجتمع رجال الفكر والحكمة؛ كما أقاموا تقسيما طبقيا للمجتمع يتواءم مع فكرتهم هذه؛ فمن جهة قسموا المجتمع إلى ثلاث طبقات- الحكام، والجند، والعامة- ومن جهة أخرى أكدوا على حتمية تبوأ الفلاسفة لمرتبة الصدارة والامتياز في المجتمع لما يمتلكه هؤلاء من سمات وصفات عقلية لا تتوفر عند غيرهم تؤهلهم لحكم وقيادة أفراد هذا المجتمع.

فسقراط مثلا كان من الأوائل الذين نادوا بضرورة أن تسند مهمة قيادة المجتمع لأصحاب العقول المستنيرة من الفلاسفة نظير ما يحوزونه من سلطة تتمثلا أساسا في المعرفة العقلية والتي تمكّنهم من صياغة وتشريع القوانين المنظمة للمجتمع؛ فسلطتهم إذن تفوق سلطة القوانين الوضعية². كما ذهب أفلاطون في كتابه الجمهورية إلى نفس ما ذهب إليه أستاذه سقراط؛ فالمجتمع عند أفلاطون يقوم أساسا على الفكر والتعقل والحكمة وهي صفات وميزات لا نجدها إلا عند الفلاسفة وأهل التعقل والحكمة. كما عرج هذا الأخير أيضا على فكرة القوانين متأثرا بأستاذه أرسطو؛ وأكد أن منبعها الأول هم الفلاسفة فلا يمكن إلا أن تصدر عن عقل مستنير وحكيم، والحكومة الأنسب في نظره هي تلك التي تحكمها الأرستقراطية لكن ليس حكما قائما على المال والجاه بل على المعرفة والحكمة³.

وبالعودة للحضارات القديمة الأخرى كالصينية القديمة والفرعونية نجد أنها هي كذلك كانت تحت سلطان فئة قليلة متنفذة من عليّة القوم بفضل ما تمتلكه من رأسمال سواء كان رمزيا مثل رجال الدين والكهنة والسحرة أم سياسي مثل الملوك والأمراء أم معرفي مثل رجالات العلم والنظر والحكمة.

أما فيما يخص الدخول لدائرة هذه النخبة في الحضارات القديمة فهو يختلف من نخبة إلى أخرى؛ فنخبة الحكام والملوك كانت منغلقة وولوجوها مبني أساسا على مبدأ الوراثة أي ينتقل الحكم بين أفراد العائلة الواحدة ولا يسمح بدخول آخرين إلى نطاق أو دائرة هذه النخبة، في حين كانت النخب الأخرى منفتحة على عناصر جديدة بفضل التنافس والأحقية لا بالتوريث. وعلى العموم يمكن التأكيد على أن ظاهرة النخبة ارتبطت بالاجتماع الإنساني منذ القدم وإن

¹ - مولود سعادة: "النخبة و المجتمع تجدد الرهانات"، الباحث الاجتماعي، الجزائر، ع/10 (سبتمبر 2010)، ص.ص 100-101

² - ارنست باركر: النظرية السياسية عند اليونان، دط، تر لويس إسكندر، القاهرة، مصر، سجل العرب، 1966، ص. 175

³ - اسماعيل زروخي: دراسات في الفلسفة السياسية، ط1، 2001، القاهرة، مصر دار الفجر للنشر والتوزيع 2001، ص. 47

اختلفت صورها ونوعها- النخبة- فهي مرتبطة بسياق زماني ومكاني يحددان نوعها ودورها؛ غير أن مصطلح النخبة لم يكن معروفا آنذاك ولكن استعملت مصطلحات أخرى للدلالة عليه والإشارة له مثل: الملوك والأمراء والنبلاء والأعيان وهم كلهم يمثلون أصحاب الرفعة والمكانة العالية في المجتمع.

وانتشرت دراسة الظاهرة النخبوية أكثر مع إسهامات منظري العقد الاجتماعي والذين يعتبرون امتدادا لما يطلق عليه عادة في الأدبيات التاريخية والفلسفية بفلاسفة عصر التنوير؛ وأساس هذا العقد حسبهم هو اتفاق أفراد المجتمع على مجموعة من القوانين تسير الدولة ككيان سياسي تمارس من خلاله -الدولة- ما يسمى بسلطة القهر على المواطنين لتقنين الحياة العامة وفرض النظام داخل المجتمع؛ ولا يحق لهؤلاء الأفراد فيما بعد المطالبة بحقوقهم لأنهم تنازلوا عنها طواعية لهذا الكيان السياسي الجديد، ويتولى شؤون هذا الكيان فئة تفرض من خلال حكمها هيئته وسلطانه على جموع المواطنين.

لقد قدم مفكرو نظرية العقد الاجتماعي رؤيتهم الخاصة لطبيعة الظاهرة النخبوية مغايرة نوعا ما لما كان متفق عليه من قبل. "فسان سيمون" مثلا أكد على أن النخبة عنده كظاهرة؛ وجدت في كل المجتمعات الإنسانية من اقل تعقيدا إلى أكثرها تحضرا وتطورا فهي أمر واقع لا مفر منه لأي مجتمع أنساني، ومن جهة أخرى رافع على ضرورة أن يحكم المجتمع مزيج من العلماء والمفكرين وأصحاب النفوذ من رجال الصناعة والبرجوازيين والارستقراط وقد دافع سان سيمون بشدة على فكرة التفاوت الطبقي بين الأفراد فهو أمر مسلم به وتقبله الطبيعة الإنسانية بل وتجزئه وتقره؛ فالمجتمع في نظره عبارة عن هرم في قمته توجد النخبة وقاعدته تتشكل من الجماهير أو العامة. وإصلاح المجتمع في نظر سان سيمون موكل في الأساس للنخبة لاسيما المفكرة منها فهي القادرة بفضل قدراتها وامتيازها العقلي على أحداث الدينامية اللازمة لتغيير هذا المجتمع وتوجيهه نحو الأفضل؛ لكن في حالة عجزها وجمودها وتقاوعسها عن أداء هذه الوظيفية فيجب في هذه الحالة استبدالها بنخبة أخرى جديدة تضطلع بهذا الدور وهو ما يسمى في الأدبيات النخبوية المعاصرة بعملية تدوير النخبة¹.

وبالرغم من جهود المفكرين والفلاسفة لصياغة مصطلح يعبر حقا عن ظاهرة النخبة إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك. فالاستعمال العلمي والاصطلاحي لمفهوم النخبة في إطار السوسيولوجيا أو العلوم السياسية أمر حديثا نسبيا، إذ لم يستخدم مصطلح النخبة إلا في القرن السابع عشر وكان استخدامه لوصف سلع ذات النوعية الممتازة؛ ثم توسع استخدامه فيما بعد ليشمل الإشارة إلى فئات اجتماعية متنوعة كالوحدات العسكرية الخاصة أو الطبقات العليا من النبلاء ويذهب توم بوتومور في كتابه الصفوة والمجتمع؛ إلى أن أول استعمال معروف لكلمة النخبة في اللغة الإنجليزية يرجع إلى سنة 1823م -حسب قاموس أكسفورد- حيث كانت تطلق على فئات اجتماعية معينة غير أنه لم يستخدم بشكل واسع في الكتابات السوسيولوجية والسياسية الأوروبية بوجه عام إلا في فترة متأخرة من القرن 19 م خاصة عبر إسهامات الرعيل الأول لنظرية النخبة من علماء الاجتماع مثل: "باريتو" و"موسكا" وميشلز وقد استخدم مفهوم النخبة

¹ فرجي ثلياد: "نظرية النخبة: [en ligne] 2010/01/04. consulté le

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=197895>

كأحد المناهج الشهيرة في التحليل السياسي والاجتماعي منذ القرن 19 خصوصا في الدراسات المتعلقة بتحديد دور الأجهزة البيروقراطية في عملية اتخاذ القرارات ذات الطبيعة السيادية¹.

رابعا- مفردات التراث النظري الكلاسيكي الغربي في دراسة مفهوم النخبة:

نعني بمفردات التراث النظري الكلاسيكي الغربي تلك الإسهامات والمحاولات التنظيرية التي خلفها علماء اجتماع وفلاسفة غربيون تصدو لمفهوم النخبة بالبحث والدراسة انطلاقا طبعاً من خصوصيات البيئة الغربية؛ والتي ساهمت في تبلور وتشكل الفكر النخبوي وأصبحت مرجعا لا مناص منه لكل دارس لهذا الفكر. ويطلق عادة على هؤلاء العلماء وأغلبهم مختصين في الحقل السوسيولوجي تسمية الرعيل الأول أو الإباء المؤسسين للفكر النخبوي الغربي. وقد دأب المهتمين بهذا الموضوع على تصنيف إسهامات هؤلاء العلماء الكلاسيكيين حسب منظورين اثنين هما؛ المنظور السيكولوجي ويمثله فلفيردو "باريتو"، والمنظور التنظيمي الذي يقوده كل من جيتانو "موسكا" وروبرت ميشلز، إلا أننا في هذه الدراسة سنخالف هذا التقسيم ونبتدع تصنيفا جديدا يقوم أساسا على التقسيم المناطقي أو المكاني -أن صح التعبير- وعليه سيكون تقسيمنا على النحو الآتي؛ المدرسة الإيطالية والتي يمثلها كل من؛ فلفيردو "باريتو" وتلميذه جيتانو "موسكا"، والمدرسة الألمانية ويتزعمها روبرت ميشلز.

1-المدرسة الإيطالية:

يمثل هذه المدرسة -كما ذكرنا سلفا- كل من عالما الاجتماع الايطاليين فلفيردو "باريتو" وتلميذه جيتانو "موسكا"؛ وقد ركزا اهتمامهما بالدرجة الأولى على مناهضة وتفنييد التفسير الماركسي لظاهرة النخبة في المجتمع الغربي؛ والذي أعلى من شأن العامل الاقتصادي وجعله المحرك الأساسي لحركة التاريخ وأهمل بقية العوامل الأخرى لاسيما السيكولوجية والتنظيمية والتي اعتبرها كل من ياريتو و"موسكا" أساسيتان في تفسير وتحليل الظاهرة النخبوية في المجتمعات الإنسانية؛ حيث ينطلق كل منهما من فكرة وجود أقلية تحتكر السلطة والقوة في المجتمع في مقابل أكثرية خاضعة لسلطة الفئة الأولى إلا أنها يختلفان في مصدر هذه السلطة، ف"باريتو" يؤكد على أن القدرات السيكولوجية للأفراد هي التي تؤهلهم لدخول عالم النخبة؛ فيما يعتقد "موسكا" أن العمل المنظم والمنسق هو الذي يمكن هؤلاء الأفراد من احتلال الصدارة والريادة في المجتمع.

1-1-فلفيردو "باريتو":

يعد فلفيردو "باريتو" هو الأب الروحي لعلم الاجتماع السياسي؛ كما كانت له إسهاماته في المجال الاقتصادي خاصة في إثراء النظرية الليبرالية؛ إلا أن أهم انجازاته على الإطلاق وأكثرها أهمية هي تخصصه في الظاهرة النخبوية-باعتبارها ظاهرة اجتماعية وسياسية- وإبداعه المنقطع النظير في هذا الموضوع والسبب في ذلك هو معاداته الشديدة للأفكار الديمقراطية من جهة؛ وتأثيرها الكبير حسبه على المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا؛ كما انه أول من استخدم مصطلح النخبة مستعيرا إياه من المجال الاقتصادي ليدخله عالم السياسة والاجتماع كمحاولة منه لإيجاد مصطلح جديد مغاير تماما للمصطلحات التي كانت شائعة آنذاك للتعبير عن شاغلي مراكز القوة والسلطة في المجتمع وهي محاولة كللت في النهاية بالنجاح والتقدير حيث أصبح هذا المصطلح شائعا بعد ذلك في الدارسات والأبحاث التي تهتم بمثل هكذا مواضيع

¹ توم بوتومور: الصفوة والمجتمع: تر محمد الجوهري، الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية، د س، ص: 182

وينطلق "باريتو" في دراسته للنخبة من فكرة أساسية وهي أن الخصائص السيكولوجية التي يتمتع بها الأفراد هي التي تؤهلهم لدخول دائرة النخبة مخالفاً بذلك كل من ماركس و"موسكا" وميشلز؛ فالنخبة برأيه ليست نتاجاً لقوى اقتصادية كما يراها الأول -على الرغم من أن "باريتو" عاند الطبقة الحاكمة التي جاء بها كارل ماركس- ولا هي تعتمد على قوتها التنظيمية كما يقر بذلك كل من "موسكا" و"ميشلز" ولكنها نتيجة لتلك الخصائص التي اكتسبتها الإنسانية عبر التاريخ. وحاك أيضاً سان سيمون في مبدأ التفاوت بين البشر فأفراد المجتمع غير متجانسين أي أنهم مختلفون عن بعضهم البعض من الناحية الجسدية والفكرية وحتى النفسية¹.

وتبعاً لهذه الخصائص قسم "باريتو" المجتمع إلى قسمين: نخبة وجماهير؛ فالنخبة عنده تتألف من الأفراد الذين يتميزون بقدرة عالية على الأداء في مجال تخصصهم وقد صنفها إلى صنفين وهما: النخبة الحاكمة والنخبة غير الحاكمة؛ فالنخبة الحاكمة هي من يتولى تسير شؤون الدولة والمجتمع من خلال مواقعها الريادية وهي تؤثر على القرارات السياسية من حيث أنها هي مصدر هذه القرارات؛ وتتشكل أساساً من الرؤساء والوزراء وقادة الجيش ومدراء المؤسسات الكبرى ورؤساء الجامعات وهؤلاء.

وفي مقابل النخبة الأولى نجد نخبة ثانية غير حاكمة تتكون من أفراد لا يستطيع المجتمع أن يستغنى عن خدماتهم مهما كانت الظروف والأسباب نتيجة لأعمالهم ووظائفهم الحساسة والمهمة ومثال على ذلك الأطباء الكبار، والأساتذة الكبار، والمفكرين، والمثقفين، والفنانين وهؤلاء وعلى الرغم من أنهم لا يمارسون السلطة السياسية إلا أنهم يحملون خصائص النخبة الحاكمة أو كما سماها "باريتو" الرواسب؛ وهم مؤهلون للارتقاء إلى مصاف النخبة الحاكمة في أي لحظة متى سمحت لهم الظروف بذلك؛ وهذا ما يحدث بالفعل من خلال ما أسماه "باريتو" "دورة النخبة"²، وفي مقابل الطبقتين الأولى نجد طبقة العوام أو الجماهير؛ فهؤلاء يشغلون أعمالاً تتسم بالروتينية واليدوية والتي لا تحتاج إلى خبرة أو موهبة أو دراسة طويلة وهملا يملكون شيئاً ولا يحتلون مواقع اتخاذ القرار والمسؤولية أي أن أعمالهم لا تؤثر في مصير ومستقبل الآخرين³.

وكمحصلة لكل ما سبق نلاحظ أن ما جاء به فليفريدو "باريتو" في موضوع النخبة وخاصة في الشق المتعلق بتقسيم المجتمع (أقلية حاكمة وأغلبية محكومة) لم يضيف إلى المعرفة العلمية والسوسيولوجية شيئاً فمّن المعروف أن البشر متميزون في القدرات والخصائص وكثيرة هي الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة العلمية كما أن إرجاع الانتماء إلى النخبة إلى عوامل سيكولوجية بحثية فيه الكثير من المبالغة والمغالطة، حيث هناك عوامل أخرى كثيرة يمكن تصنيف النخبة على أساسها بمعنى أن إطلاق صفة النخبة أو إنكارها على فرد أو جماعة لا يعود إلى عوامل سيكولوجية فحسب.

1-2- جيتانو "موسكا":

يعد "جيتانو" "موسكا" ثاني منظر في الحقل النخبوي الكلاسيكي الغربي؛ اتفق مع أستاذه "باريتو" في فكرتين؛ أولهما تقسيم المجتمع إلى قسمين أو طبقتين إحداهما أقلية ولكن فاعلة وحاكمة والثانية أكثرية ولكن مشتتة ومحكومة؛

¹ شعبان الطاهر الأسود، علم الاجتماع السياسي، ط1، القاهرة، مصر، الدار المصرية اللبنانية، 1999، ص 97

² إحسان محمد الحسن: النظريات الاجتماعية المتقدمة، دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، عمان دار وائل للنشر والتوزيع، 2005، ص 132

³ المرجع نفسه، ص: 132

وثانيهما أنه تصدى لمقولات ماركس حول أن العامل الاقتصادي هو المسؤول عن التقسيم الطبقي في المجتمعات الإنسانية وأن العامل الطبقي سيزول عندما تسود الشيوعية. إلا أنه اتفق مع ماركس في استعماله مصطلح الطبقة الحاكمة بدل النخبة الحاكمة، وقد وردت كل أفكاره في كتابه "الطبقة الحاكمة The Ruling Class" الذي نشر سنة 1896 ثم ترجم إلى الانجليزية سنة 1939¹.

ويذهب "موسكا" مثله مثل "باريتو" إلى أن هناك حقائق وشواهد تاريخية تؤكد على أنه في كل المجتمعات الإنسانية كانت دوما قلة تحكم وأكثية تخضع للحكم، وهذه الملاحظة التي توصل إليها لا تقتصر على مجتمعات بعينها بل تشمل كل المجتمعات الإنسانية بدءاً من الأقل تنظيمياً حتى المجتمعات الديمقراطية الحديثة².

ويرجع "موسكا" حكم الأقلية إلى قوتها التنظيمية في مقابل وجود أغلبية غير منظمة؛ إلا أنه يختلف مع أستاذه "باريتو" في الأسس التي يقوم عليها حكم هذه الأقلية أو كما سماها هو الطبقة الحاكمة؛ فبينما يرجعها الأول إلى اعتبارات سيكولوجية خالصة يستخدم الثاني مفاهيم مغايرة تماماً وأن اتفق معه في المضامين العامة³.

كما يرى "موسكا" أنه وبالإضافة للقدرة التنظيمية للطبقة الحاكمة كمصدر رئيس من مصادر قوتها فإن أفراد هذه الطبقة يستمدون قوتهم أيضاً من سيطرتهم الفعلية على مقاليد الأمور ومراكز اتخاذ القرار السياسي، كما أن وسائل الاتصال بين أفراد النخبة بسيطة وأن فرص الاتصال فيما بينهم سهلة أيضاً وأفضل بكثير مما هو الحال في الجماعة الكثيرة العدد، الأمر الذي يؤدي بالنخبة إلى صياغة سياستها بشكل أسرع كما أنها قادرة على إحداث تماسك داخلي إذا ما طرأ أي تهديد خارجي لها، هذا ناهيك عن سرعة استجابتها للمتغيرات التي تحيط بها⁴.

ويتفق "موسكا" قليلاً مع "باريتو" من حيث اعتقاد كلاهما وجود فئة تفصل النخبة الحاكمة عن اللانخبة سماها ياريتو النخبة الغير حاكمة، وأطلق عليها "موسكا" اسم النخبة الفرعية. ومع أن "موسكا" يقر على غرار "باريتو" بوجود دوران داخلي للنخبة بتجديد أعضاء جدد ودوران خارجي بحلول نخبة تعبر عن مصالح جديدة إلا أن تفسيره لهذه العملية كما يبدو يجمع الجانب الاجتماعي والسيكولوجي معاً خلافاً لـ "باريتو" الذي قدم تفسيراً سيكولوجياً خالصاً⁵.

نلاحظ من مقاربات "موسكا" المشار إليها أنه يستعمل كلمة طبقة "Class" بدل النخبة "Elite" مما يوحي شكلياً أنه متأثراً بالنزعة الماركسية؛ بينما هو كما سنرى معارض للماركسية ومدافع عن الليبرالية، كما أن نظرية الديمقراطية لم تسلم هي الأخرى من انتقاداته لها خاصة مضامينها الكلاسيكية كحكم الشعب أو حكم الأغلبية، إلا أن رفضه للديمقراطية لم يدم طويلاً حيث أنه سرعان ما حاول إيجاد نقاط التقاء وتماس بينها وبين نظرية النخبة خاصة بعد اصطدامه بالحركة الفاشية في إيطاليا فيما بعد.

¹ مولود زايد الطيب، مرجع سابق، ص 199

² توم بوتومور: مرجع سابق، ص 27

³ أحمد زايد: مرجع سابق، ص 42

⁴ إبراهيم أبراش: علم الاجتماع السياسي، مقارنة إبستمولوجية ودراسة تطبيقية على العالم العربي، منشورات إي كتب، ص 48

⁵ بوروني زكرياء: "النخبة السياسية وإشكالية الانتقال الديمقراطي" (دراسة حالة الجزائر)، (مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في العلوم السياسية غير منشورة، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق، جامعة منتوري، قسنطينة -2009/2010)، ص 95

2- المدرسة الألمانية:

يمثل هذه المدرسة عالم الاجتماع الألماني روبرت ميشلز؛ ورغم أنه يتفق مع أستاذه الإيطالي جيتانو "موسكا" في فكرة أن القوة التنظيمية التي تميز النخبة عن اللانخبة واستبعادهما لأفكار ومقاربات "باريتو" حول العوامل النفسية السيكلوجية كأساس لانقسام المجتمع إلى أقلية وأغلبية إلا أن لكل منهما حيثياته ومقارباته الخاصة للموضوع. يعتبر الألماني "روبرت ميشلز" القطب الثالث في الفكر النخبوي الكلاسيكي هذا بالإضافة إلى كونه تلميذا مخلصا "لموسكا"، فقد تابع موقفه في دراسة النخبة مؤكدا قدرتها التنظيمية، وعرض في مؤلفه الشهير "الأحزاب السياسية" النظريات والآراء التي اقترحها "موسكا"، وكانت الفكرة التي أصر عليها ميشلز هي أن كل بناء لابد وأن يتضمن حكم النخبة، الأمر الذي دفعه إلى حد القول: "إن كل من يجد تنظيمًا سوف يعثر على الأوليغارشية بالضرورة".¹

ففي كل تنظيم أيا كان حجمه لابد أن توجد القيادة لكي يكتب له النجاح والبقاء وطبيعة هذا التنظيم تمنح القادة القوة والامتياز؛ والقادة في التنظيم هم الذين يعبرون عن آراء الأعضاء؛ ويتدعم موقفهم باستمرار نتيجة لعوامل تنظيمية وأخرى سيكلوجية لكن العوامل التنظيمية لها الأهمية دائما وكلما ازداد التنظيم حجما وتعقيدا تزايد اعتماده على قادته وجهازه البيروقراطي الذي يكتسب خبرة فنية خاصة؛ مثال ذلك أن القادة في الأحزاب السياسية يتولون دائما زمام الأمور ويسيطرون على كل شيء؛ فكان القوى البنائية والتنظيمية تدفع دائما نحو الأوليغارشية.²

كما يؤكد على الدور الذي تلعبه السمات السيكلوجية العامة أيضا حيث يقر أن القائد أو الزعيم الذي تعود على ممارسة السلطة يجد صعوبة بالغة في التنازل عنها بل ويعتبرها حقا مشروعًا ومكتسبا فضلا على أن ممارسة السلطة ذاتها تحدث تحولا سيكلوجيا في شخصية القائد فيزداد إيمانه بنفسه ويبالغ في عظمته ويلجأ في النهاية إلى نسب التنظيم له، وعلى الرغم من أنه قد عزا هذه الظاهرة إلى غرائز كامنة في الجنس البشري إلا أنه قد أكد أن هذه الغرائز تنمو وتتدعم من خلال النظام الاقتصادي المستند إلى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، والحقيقة أن ميشلز قد بنى فكرته عن حتمية الأوليغارشية في ضوء تصور للطبيعة الإنسانية مناقض تماما لتصور ماركس فهو يؤكد أي ميشلز - أن لدى الإنسان ميلا طبيعيا للقبض على مقاليد السلطة وما أن يحصل عليها حتى يسعى إلى تدعيمها ما استطاع.³

ومن هنا يمكن التأكيد على نقطة مهمة وهي؛ أن ميشلز حاول إيجاد توليفة جديدة في الفكر النخبوي الكلاسيكي تجمع ما بين آراء "باريتو" وأفكار "موسكا" ومناهضة لتصورات ماركس؛ غير أنه أعلى من شأن الخصائص التنظيمية في مقابل السمات السيكلوجية للأفراد.

خامسا- من الصفوة في التراث الإسلامي؛ إلى النخبة في التنظير الغربي:

الصفوة عموما تعرف في الأدبيات العربية على أنها "مجموعة من الافراد؛ يحتلون الصدارة والريادة في مجتمعهم ويمتلكون السلطان والنفوذ؛ ويستخدم ايضا للدلالة على الجماعة أو القلة الحاكمة في مجال محدد في مجتمع محدد" هذا تعريف عام للصفوة يمكن الاستئناس به والعودة اليه لمقارنته بمفهوم النخبة.

¹ محمد علي محمد: مرجع سابق، ص 74

² المرجع نفسه، ص: 74

³ المرجع نفسه، ص: 74-75

والصفوة في الفكر الاجتماعي والسياسي الإسلامي؛ لها نفس الدلالات الخاصة بالنخبة في الفكر الغربي تقريبا من حيث التفوق ومن حيث الدور الذي تقوم به في الحياة والشؤون العامة، إلا أن المفكرين العرب اعتادوا على استعمال لفظ النخبة بدلا من الصفوة كنتيجة لتعاملهم المستمر مع الأعمال الفكرية الغربية ومنهم حتى من لم يجد فروقا بين مفهوم الصفوة ومفهوم النخبة إلا أن هذه الأخيرة تبقى ذات ميزة ودلالة خاصة لغةً ومضموناً¹. أما عن أهم الفروق التي تفصل اصطلاحيا وإبستمولوجيا كلمة النخبة والصفوة في الفكرين الإسلامي والغربي فيمكن أن نوجزها فيما يأتي:

لم يستعمل المفكرون المسلمون الأوائل النخبة كمصطلح بل ككلمة؛ ويرجع السبب في ذلك إلى شهرة مصطلح الصفوة آنذاك ووروده في القرآن الكريم بالمعاني الايجابية في مقابل عدم ذكر النخبة في التنزيل الحكيم ولو مرة واحدة²، وهي كظاهرة اجتماعية كانت تحكمها مجموعة من المبادئ العامة شديدة التناسق والترابط وتتضمن منظومة من القيم الأخلاقية هي لب وجوهر هذه الظاهرة؛ إذ أنها لا تقاس بكثرة المال ولا بالمركز السياسي أو الاجتماعي أو بالمراكز الإدارية والعسكرية فقط ولكن تقاس بمعايير دينية وأخلاقية تجمع بين القول والفعل طبقا لعقيدة الإسلام وما تطلبه من التزام؛ أما في الفكر الغربي فإن القدرات العقلية والثروات والمركز السياسي والنظام الطبقي تؤهل أصحابها إلى النخبوية وهذا ما نجده في تفسيرات ونظريات منظري نخبة الغربيين سواءً الأوائل أو المعاصرين³.

في الفكر الإسلامي تشمل الصفوة كل مجموعة متميزة ومتفوقة في علمها ومستوى أدائها مهما كانت درجة وضعها الاجتماعي أو الاقتصادي شرط أن تكون ملتزمة بعقيدة الإسلام في حين تشمل النخبة في الفكر الغربي المتفوقين في فئات اجتماعية عدة ولكن أهمها النخبة السياسية والعسكرية والاقتصادية فهذه المجموعات تحظى بكثير من الاهتمام في الأعمال الفكرية لدى منظري النخبة الغربيين وخاصة فيما كتب ونشر منذ بدايات القرن 20م وحتى الآن.

في الفكر الغربي فإن مفهوم النخبة؛ يركز حول قاعدة وجود طبقة حاكمة وطبقة محكومة والطبقة الحاكمة هي دائما أقل هاتين الطبقتين عددا وهي التي تقوم بكل الوظائف السياسية وتحتكر السلطة كما تتمتع بالفوائد التي تكون حصيلة لكل تلك السلطة⁴؛ بينما الثانية تكون أكثر عددا وتسير من طرف الأولى أما مفهوم الصفوة في الفكر الإسلامي فهي تؤمن بهذه القاعدة ولكن في إطار أخلاقي يستند على نصوص شرعية من القرآن والسنة، ويقوم أساسا على مبدأ خدمة الطبقة الحاكمة للطبقة المحكومة، وهي لا تحتكر الفوائد والعائدات بل تُوزَع بالعدل على جميع أفراد المجتمع.

لكن وعلى الرغم من كل هذه المآخذ التي طالت مفهوم النخبة في الفكر الغربي إلا أن أهم خاصية ايجابية فيها هي: نجد هناك ثراء في التنظير الغربي في موضوع النخبة منذ أواخر القرن 19 وبدايات القرن 20م وخصوصا النخبة المسيطرة على القرارات الكبرى في الدولة؛ ويتجلى هذا الثراء في المنتج الفكري والنظري وإسهامات رواد النظرية النخبوية من أمثال "باريتو" و"موسكا" وميشلز. وقد أدى هذا الثراء التنظيري ببعض منظري نخبة الغربيين إلى حد المطالبة

¹ محمود محمد الناكوع: الصفوة في الفكر الإسلامي؛ الظاهرة والنظرية، ط2، القبة، الجزائر، منشورات الشائعي 2011 ص 33..

² عمر عبيد حسنة: مفهوم النخبة وفق المنظورين الإسلامي والغربي [en ligne]، متوفر على:

http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=1&ChapterId=2&BookId=2059&CatId=201&startno=0

³ محمود محمد الناكوع: مرجع سابق، ص 162

⁴ المرجع نفسه، ص 163

بصياغة قوانين تشبه قوانين الفيزياء التي لا تكاد تسمح بالاستثناء ومنهم ميشلز الذي أكد أن قانون الاوليغارشية الذي صاغه لا مجال للطعن فيه لأنه يشبه القوانين في العلوم التجريبية¹.

في حين لم يتطور الفكر الإسلامي الذي تناول مفهوم الصفوة بالتنظير تطورا مهما حتى في قرون النهضة الإسلامية وهي القرون الخمسة الأولى من تاريخ الإسلام وحضارته؛ ولا يكاد يجد الباحث أبسط المعلومات والكتابات التي تهتم بهذه الظاهرة الاجتماعية على الرغم من وجودها أصلا في المجتمع الإسلامي فالقواميس ودوائر المعارف والإسهامات الفكرية للباحثين المسلمين تخلو من مصطلح الصفوة بأبعادها الإسلامية سوسيولوجيا وثقافيا وحتى سياسيا؛ وإن وجدت فهي من جهة: محدودة في إطار التصوف و الزهد ومن جهة أخرى مستقاة من البيئة الغربية البعيدة كل البعد عن خصوصيات المجتمع العربي والإسلامي وهذا خطأ معرفي لا يمكن الاستهانة به، فجهود التنظير التي تطورت في المجتمعات الغربية، تعرضت ومع مرور الوقت للنقد و مرت بأزمات حادة؛ في نفس البيئة التي ظهرت فيها وذلك بسبب عدم قدرتها على تفسير كل الظواهر التي حاولت دراستها والخوض فيها، وهذا أمر طبيعي ومسلم به علميا، إذن فليس من المنطقي أن يعالج الباحثون العرب والمسلمين قضايا مجتمعاتهم؛ بالرجوع إلى نفس المنطلقات النظرية الغربية والتي أثبتت كما سبق ذكره قصورها وضعفها حتى في مجتمعاتها الأصلية².

الخاتمة:

تعد النخبة كمفهوم؛ حديثا نسبيا بالمقارنة مع الظاهرة التي تعد قديمة وملازمة للمجتمعات البشرية فلا مجال للحديث عن الاجتماع الإنساني دون أن تكون هناك أقلية متحكمة في مصادر القوة مهما كان مصدر هذا القوة وشرعيتها هذا من جانب الظاهرة؛ أما النخبة كمفهوم فقد ظهرت لأول مرة في أدبيات الفكر السوسيولوجي مع إسهامات كل من "باريتو"، و "موسكا" ثم تبعهما بعد ذلك "روبرت ميشلز" أو ما يمكن أن نطلق عليهم اسم الرعيل الأول للنظرية النخبوية الغربية والذين أسسوا فيما بعد ما يمكن أن نسميه بعلم اجتماع النخبة وكانوا يبالغون من وراء ذلك من جهة؛ أن يعاندوا به مفهوم الطبقة الحاكمة كما صاغه كارل ماركس؛ ومن جهة أخرى قدموا تفسيرات مغايرة تماما لطروحاته حول مصدر امتلاك السلطة والسيطرة في المجتمع. ولإثراء هذا الحقل المعرفي الجديد قدم هؤلاء إسهامات علمية رائدة أصبحت بعد ذلك مرجع لا مناص منه لكل باحث أو دارس لموضوعة النخبة، كما يتقاطع مفهوم النخبة مع بعض المفاهيم الأخرى وخاصة من الناحية الشكلية مثل مفهوم الصفوة إلا أن هذا لا يمنع من وجود العديد من الاختلافات من الناحية الضمنية والإجرائية والتي تضع حدود ابستمولوجية بين المفهومين.

قائمة المراجع:

- 1- مولود زايد الطيب، علم الاجتماع السياسي، ط 1، بنغازي ليبيا، دار الكتب الوطنية، 2007
- 2- أحمد زايد: البناء السياسي في الريف المصري، تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة، ط 1، القاهرة مصر، دار المعارف.
- 3- محمد علي محمد: أصول علم الاجتماع السياسي، مصر، دار المعرفة الجامعية، 2009

¹ توم بوتومور: مرجع سابق، ص: 13

² أحمد زايد: البناء السياسي في الريف المصري، مرجع سابق، ص 10-09.

- 4-مولود سعادة: "النخبة والمجتمع، تجدد الرهانات"، الباحث الاجتماعي، الجزائر، ع/10 (سبتمبر 2010)
- 5-ارنست باركر: النظرية السياسية عند اليونان، دط، ترجمة لويس إسكندر، القاهرة، مصر سجل العرب 1966
- 6-اسماعيل زروخي: دراسات في الفلسفة السياسية، ط1، القاهرة، مصر، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2001
- 7-توم بوتومور: الصفوة و المجتمع: تر محمد الجوهري، الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية
- 8-فرجي ثلباد: "نظرية النخب [en ligne]: 2010/01/04: consulté le متوفر على: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=197895>
- 9-شعبان الطاهر الأسود، علم الاجتماع السياسي، ط1، القاهرة، مصر، الدار المصرية اللبنانية 1999
- 10-إحسان محمد الحسن: النظريات الاجتماعية المتقدمة، دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة ط1، الأردن، عمان، دار وائل للنشر والتوزيع 2005
- 11-إبراهيم أبراش: علم الاجتماع السياسي، مقارنة ابستمولوجية ودراسة تطبيقية على العالم العربي منشورات إي كتب
- 12- بوروني زكرياء: "النخبة السياسية وإشكالية الانتقال الديمقراطي" (دراسة حالة الجزائر) (مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في العلوم السياسية غير منشورة، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق، جامعة منتوري، قسنطينة - 2009/2010)
- 13-محمد نبيل الشيعي: "النخبة في العالم العربي" دراسة نقدية وصفية، [en ligne], 2010 /09/02, consulté le متوفر على: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=227805>
- 14-محمود محمد الناكوع: الصفوة في الفكر الإسلامي، الظاهرة والنظرية، ط2، القبة، الجزائر، منشورات الشانجي، 2011